السيد هاشم معروف مؤرخاً

كتــابــه (سـيـرة المصطفـــــى) أُ نموذجاً

الشيـخ د. جعفر المهاجر

(١)

يمتاز العالم والباحث السيد هاشم معروف ، رضوان الله تعالى عليه ، بتعـدّد الإهتمامات . بين الفقه والحديث والفلسفة والتاريخ والسيرة . وقد عكست مصنفاته بتنوّع موضوعاتها إهتماماته تلك . وذلك أمـر له حسناته ولا ريـب . لأنـه يمنح المصنّف والقارئ كلاهما إطلالة من زوايا متعدّدة . إطلالة من المصنف على مختلف الموضوعات . وتلك ميزة نراها تتجه نحو الإنحسار ، حيث يتجه الإهتمام اليوم للتخصّص العمودي الدقيق. ثم إطلالة من القارئ الناقد على المصنف من أكثر من زاوية ونافذة . وهـذه ميزة لا يتيحها للقـرّاء والنقّـاد إلا المصنفون الموسوعيون . خصوصاً حيث يمتازون بالأصالة . والنموذج الأمثل لهذا النمـط من المصنفين هـو عالم كبيرجليـل ، أُتيح لـي أن أُعنى به زمناً طويلاً ، هـو بهاء الدين العاملي ، رضوان الله عليه . ذلك الكبير حقـاً . الذي بسط فكـره النيّـر على مختلف معارف عصره . وأتى في كل ما لامسـه عقلـه بالأصيل الطريف .

ممّـا لاريـب فيـه أن تلك الصفـة الموسـوعيّـة قـد إكتسبها السيـد معروف من إعـداده الحـوزوي النجفـي . فمـن المعلـوم أن الدراسـة الحوزويـة عنـدنا ، نجفيّـة كانت أم غيـر نجفيّـة ، ذات نمـط محـوري يـدور علـى الفقـه . ومـا المعارف الأُخـرى ، ممّـا ذكـرناه وممّـا لـم نـذكـره ، إلا علـوم خادمـة ، والمخـدوم هـو الفقـه . وظيفتهـا أن تُعـدّ الفقيـه إعـداداً مُتكامـلاً لوظيفته الأساسيّـة ، التي هي إستنباط الحكـم الشرعي من مصـادره . ومـن هنـا فـإن إعـداد الفقيـه ، في مراحلـه المختلفـة ، يقتضـي الإلمـام ، بـدرجـة أو بـأُخـرى بتلك المعـارف جميعها . حتى لـو لـم تكـن جـزءاً رسميـاً من المنهج الإعـدادي المعمول بـه . بـل تُعالَـج وتُمنَـح قسطها من العنايـة ضمـن الفقـه وأُصولـه بقـدر حاجـة الفقيـه المستقبِلـة إليهـا .

سأتخذ من كتاب " سيرة المصطفى " أُنموذجاً لقراءة السيد هاشم معروف مؤرخاً . والسؤال الذي من المُرجّح أن يدور الآن في ذهن مُستمع عارف بما بقي من مصنفات السيد رحمه الله ، هو : لماذا (سيرة المصطفى) حسبُ ؟ لماذا لا تشمل هذه المراجعة النقدية كتابه الآخر (سيرة الأئمة الإثنا عشر) وكلاهما من باب واحد ؟ والحقيقة أن ذلك ما كانت النيّة متجهة إليه بادي الرأي . لكنني بعد التمعّن رأيتُ أن الكتابين من أنموذجين على شئ من الإختلاف في طريقة المعالجة . والجمع بينهما في مراجعة واحدة سيُنتج بحثاً قلقاً ، يفتقر إلى قدر من التماسك . وعليه فقد آثرتُ أن أُفرد (سيرة المصطفى) بهذه المراجعة ، بوصفها أُنموذجاً . خصوصاً وأننا الآن في حلقة دراسية ، يُفترَض أن تنظر في موضوعها بأكبر حدّ ممكن من التفصيل . على أن تُجمَع الدراسات فيما بعد بما يُحقّق تكاملها . وإني لأرجو أن يجد (سيرة الأئمة الإثنا عشر) من بين السادة المشاركين ، مَن يفيه حقه .

(٢)

إن كتابة السيرة هو من بين فنون الكتابة التاريخيّة . يُشبه إلى حدّ بعيد فن العمارة . يأخذ مادته من مصادرها ، ثم يعمد إلى تشكيلها ، أعني إعطاء ها شكلاً هندسياً . نافعاً لِما يُراد منها ، ويسهُل على القارئ أن يتتبّع حركته في الآن نفسه . هكذا يتفاوت هذا الفن من الكتابة تفاوتاً بالغاً ما بين كاتب وآخَر في أمرين : المادة التي حشدها ، ومدى كفايتها بحيث تُغطّي مُجمل الأسئلة التي تطرحها عادةً حياة أي إنسان . ومن الغني عن البيان أن الأسئلة تكبرأو تصغر بنسبة حجم موضوعها . ثم طريقة الكاتب في عمارة تلك المادة . بحيث كلما تقدّم قارئه في صفحات كتابه أو مقالته ، كلما أصبحت العمارة التي سعى إليها الكاتب أعلى بنياناً ، و غدت صورتها أوضح وأبهى .

لقد كُتب الكثير في سيرة النبي صلوات الله عليه وآله . وكما في كل موضوع مؤهّل لأن تختلف فيه الأنظاربسبب تعقيده البالغ ، فإن الأُكتو بات كثيراً ما تعكس وجهة نظر صاحبها ومعتقدا ته. ولذلك ، وكمقدمة أرا ها ضرورية لمراجعة نقدية لكتاب (سيرة المصطفى) ، فإنني سأعمد إلى التعريف بكتابين موازيين له . هما (

حياة محمد) لمحمد حسين هيكل ، و (محمد في مكة) و(محمد في المدينة) للمُستعرب مونتجومري وات .

حظي كتاب هيكل لفترة طويلة بشهرة واسعة . جزاءً وفاقاً لعرضه القصصي المُشوّق . ولأنه أول عمل من نوعه خطّته يد مسلم . ولكنه سرعان ماانصرف القرّاء عنه ، إلى درجة أنك لا تكاد تجده اليوم معروضاً في المكتبات . ونعتقد أن سبب إنحدار قيمة الكتاب ترجع إلى أسباب نجاحه نفسها . لقد نجح (حياة محمد) لأنه أسعد القارئ بمادة سهلة . وكأن " حياة محمد " كتاب مفتوح وموضع إتفاق في كل تفصيلاتها . فأتى الكتاب أشبه بمقالة طويلة ، أفرغ فيها الكاتب رؤيته الشخصيّة دون مناقشة . ولذلك فليس من العجب أن يتجاوزه ذوق القرّاء وأعمال المؤرخين .

أما كتاب " وات " بجزئيه فهو على نقيض سابقه في كل شئ تقريباً . لقد كُتب بلهجة حياديّة . ومن إمارات حياده ، أنه درج في كل كتابه على أنه أينما أتى على آية من كتاب الله لايقول ، قال محمد ، كما يفعل قبيله من المُستعربين الغربيين . ولايقول ، قال تعالى ، كما يفعل المؤمنون بأنه كتاب مُنزَل . بل يقول " قال القرآن " . (محمد في مكة / ٥) . كما أننا نجد فيه مجموعة من الأسئلة الدقيقة حول سيرة الرسول ، لا نجدها مجموعة في أي كتاب آخَر سابق أو لاحق .

(٣)

من البيّن والجلي أن البُغية من هذا العرض السريع لكتابين من أعرف الكتب الموازية لـ (سيرة المصطفى) ، أن أُهيئ محلاً له يكون على مقاسه تماماً . وما وظيفة هذا العرض إلا أن يضع الحدود لذلك المحل . هي نفسها المناهج والمواصفات التي قلنا إنها قادت خُطى ذينك المصنفين .

ثم أن من الغني عن البيان أن السيّد معروف من أُنموذج مختلف تماماً . صفاته الأُولى أنه فقيه مسلم إمامي . إذن فهو ليس حيادياً إطلاقاً . أُنموذج الفقيه هو بالذات أُنموذج المثقف المُنتمي ، الكامل الإنتماء ، والمثقف العضوي ، الكامل العضويّة . دائماً كان كذلك وسيبقى . ومن صفة المثقف المنتمي ـ العضوي أنه مشغول القلب والعقل ليس بقيم الحياد والمنهجيّة وما إلى ذلك . بل بالدفاع عن لونه الفكري والثقافي ، والسعي الحثيث والدائم إلى نشره والتسامي به وإعماله . كل ما

عنده من معرفة مُسخّر لهذه الغاية . ثم أنه بوصفه إمامياً لـه ثـأر قديـم عند التاريخ الرسمي السلطوي . الـذي إغترف منـه هيكل في (حياة محمد) دون حـدود . و هذان عنـدي هما الملمحـان النقديـان اللذين ينبغي أن نبـدأ منهمـا أي مراجعـة نقـديّـة لكتاب السيد معروف (سيـرة المصطفى) .

(٤)

يصـف السيد معروف كتابـه على الغلاف بـأنـه " **رؤيـة جديـدة** " . والحقيقة أنني بعـد التمعّـن لـم أجـد ما يُسـوّغ هـذا الوصـف . لا في المنهـج ولا في المـادّة . اللهم إلا إذا كان المقصود مقارنته بكتب السيرة القديمة ، وعلى رأسها سيرة إبن هشام الشهيرة ، التي أخـذ مادتها من سلفه إبن إسحق . أعني بقولي هذا ، أنني لاأرى أن ما كتبه تحت عنوان (سيرة المصطفى) هو " رؤية جديدة " بالمعنى التام للعبارة . مثلما رأيناها لـدى مونتجومـري وات . وإن كنتُ أعتقد في الآن نفسه أن ماكتبه السيـد أقرب إلى الصحّـة بكثير . وهذا كلام قـد يبـدو للوهلـة الأُولى متهافتاً ، لذلك فإن عليّ أن أُسـوّغـه .

إن كتاب وات بجـزئيـه يفتقـر إلى عنصـر أسـاسـي غطّـى علـى الكثير من حسنـاتـه . وعلى رأسـهـا العـدد الكبير من الأسئلـة الجديدة التي طرحها وعالجها معالجـة دقيقـة ، سـواء من حيث الإسـتقـراء التام للنصـوص ، أم من حيث النقـد الدقيق . ولكــن :

هناك فـرق أسـاسـي بين كتابـة التاريخ الحـدثي وبين كتابـة السيـرة .

في التاريخ الحَـدَثي على المؤرّخ أن ينظـر إلى موضوع عملـه من خارجـه ، بحيث تكون وظيفتـه محصورة في الوصـف التركيبي ، ليـأتـي عملـه في النهاية أقرب ما يمكن إلـى صورة الواقع .

أمّـا كتابـة السيرة ، فلا بُـدّ فيهـا للكاتب من يـأخـذ في الإعتبار صـورة موضوعه عن نفسـه . أي أنه لا يمكن أن أن نكتب سيرة صحيحة للنبي (ص) ما لم نأخذ في الإعتبار أنه عند نفسه على الأقل نبي . بدون ذلك سـتـأتي الكتابة لتعكس فكرة وصورة الكاتب عن موضوع عمله . وهذا تشويـه فظيع لا يُغتَـفَـر . فضلاً عن أنـه سيفشل بالتأكيـد في تفسير أكثر أعمال صاحب السيرة .

مادُمنا قد نوّهنا بالروح النقديّة العالية لدى (وات) ، فإن من الإنصاف لكتاب السيد معروف أن نقول ، إن الروح النقديّة عنده أيضاً ظاهرة بارزة جداً . بل لعلّها أبرز ما في منهجه . ومن أبرز الأمثلة على ذلك مراجعته الصائبة والقويّة لِما تحفل به كتب الحديث والسيرة التقليديّة ، من ميل واضح إلى تفسير الكثير من أعمال النبي (ص) بتدخّل عامل غيبي ، يّهيّئ له أسباب النجاح ، او يتدخّل في الوقت المناسب لتحويل مجرى الأمور إلى صالحه . وقد وقف السيد معروف موقفاً صلباً وواضحاً من هذا الإتجاه . يمكن القارئ أن يعثر في كتابه على أمثلة كثيرة له . لكنه لخّصه بكلمات حازمة حيث قال : " **إن محمداً بن عبد الله (ص) يوم كان حملاً ويافعاً وشاباً وكهلاً لم يخرج في شئ من حياته عن سُنن الكون وقوانين الطبيعة . ولم تدعُ الحاجة في طفولته وشبابه إلى تلك الحوادث الجسام التي إمتلأت بها كتب الحديث والسيرة السنيّة والشيعيّة . سواء في ذلك ما رافق ولادته وطفولته في بني سعد من العجائب والغرائب ، التي نبّهتُ على بعضها في كتابي (الموضوعات) ، وما يرويه المحدّثون والمؤرخون مما جرى له في طريق الشام ، وهو في قافلة من مائة وثمانين من التجار ومعاونيهم ، كحديث الغمامة التي كانت تُظلّله ، والمياه التي كانت تتفجّر من بطون الصحراء التي كانت تتعرّض فيها حياة العشرات من المسافرين للموت عطشاً ، والأشجار اليابسة التي كانت تعود لها الحياة فتُثمر من ساعتها أنواعاً من الثمار إلى كثير من أمثال ذلك [.....] ممّا إشتملت عليه كتب الحديث والتاريخ من الأساطير التي إستغلّها أعداء الإسلام للدس على النبي ورسالته** " (سيرة المصطفى / ٥٤) . وغني عن البيان أن السيد الجليل كان بحاجة إلى كل مذخوره من الشجاعة حين صدر عنه هذا الرأي الحازم الجازم ، الذي إتجه مباشرة إلى صميم نهج كامل في فهم سيرة الرسول الأكرم . كما أنه يضرب مجموعة كبيرة من الأحاديث المعتبرة صحاحاً عند فريقي المسلمين . كما أن من الغني عن البيان أنه طبّق هذا النهج بأمانة في كل كتابه (أنظر مثلاً الصفحات / ٤٦ و ٤٨ و ١٧٨ و٢٩٣ و٣٤٨) .

(٥)

هذا النمط من التفكير الحرّ نجد عليه مثالاً كبيراً آخَر . وذلك في التمهيد المُسهَب الذي عقده في مطلع كتابه لبيان أحوال العرب قبل الإسلام (سيرة المصطفى / ١٣ ـ ٢٥) .

فمن المعلوم أن القرآن وصف دين العرب قبل الإسلام بأنه " ظن الجاهليّة " (آل عمران / ٥٤) ، وقال التوصيف عينه على بعض أفعالهم وإنفعالاتهم وسلوكهم (المائدة / ٥٣ و الأحزاب / ٣٣ و الفتح / ٤٨) . لكن هذه التوصيفات ، الموجّهة إلى موصوفات بعينها ، عُمّمت من بعدُ في كتابات أهل التاريخ ومَن أخذ عنهم ، لتنال كل ظواهر الثقافة والحضارة العربيين . بحيث ذاعت في الألسنة والكتابات على مختلَف المستويات عبارة (العصر الجاهلي) . وصفاً لِما قبل الإسلام من تاريخ العرب . والجهل هنا إمّا في مقابل العلم ، وإمّا في مقابل التعقّل والإتزان . ولكنه ، على كل حال ، حكم عام شامل ، لا مُسوّغ له لا ممّا أتى به القرآن ولا من حقائق التاريخ .

من المُتوقّع من مثل السيد معروف أن يتلقّف هذا التوصيف دون مناقشة ، إن لم يكن أكثر . لا لشئ إلا لأنه يُلائم عالمه الفكري ، المعني ببيان فضل الإسلام على العرب . حيث كلما كانت الفوارق أكبر لمصلحة الإسلام ، كلما كانت النقلة أوسع ، وكان فضل الإسلام بالتالي أعمّ وأشمل . لكننا رأيناه يعقد ذلك التمهيد لينعى فيه على القائلين بوصف العرب قبل الإسلام بأنهم كانوا إجمالاً أهل جاهليّة . ونقتبس فيما يلي ختام هذه التمهيد . لأنه يُلخّص مُجمَل ما ساقه قبله . مُستفيداً من أبحاث مَن سبقه في هذا الميدان . وعل رأسهم طبعاً الدكتور مصطفى جواد في كتابه الطائر الصيت (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

" المقصود من هذه اللمحات عن حياة العرب قبل الإسلام ترجيح الرأي القائل بأنهم لم يكونوا كما صوّرهم بعض الكتّاب أشبه ببنيان قد تداعت أركانه وانهارت أُسسه وقواعده ، ولم يبقَ شئ منه في المحل المناسب له ، على حدّ تعبير أولئك الذين جرّدوهم من جميع القيم والفضائل [.....] . وقد ذكرنا أن الدراسات الواعية لتاريخهم الحافل بالإباء والشمم والكرم والنجدة والشعر والحكم والشجاعة وغير ذلك ، ممّا يحدثنا عنه تاريخهم وأخبارهم . بالإضافة إلى أن

التجارة التي كانوا يتعاطونها ، والإمارات التي أسسوها على حدود الفرس والرومان ، والديانتين المسيحية واليهودية اللتين إنتشرتا في أكثر المناطق العربية ، كل ذلك من المرجحات للوقوف إلى جانب الرأي الآخَر ، الذي يراهم كغيرهم من الأُمم التي تتمتّع بوجودها الذاتي وخصائصها الكريمة ، في حدود ما يمكن أن ينتج عن البداوة وطبيعة الصحراء القاسية " .

(٦)

إستناداً إلى ذلك كله ، وخصوصاً إستناداً إلى ما امتاز به (سيرة المصطفى) من تفكير مُنتم وحر في آن معاً ، فقد كان يجب أن يأتي من أبدع ما كُتب في بابه . لولا أمرين ، لا أجد مفرّاً من الإشارة إليهما إلتزاماً بأمانة النقد .

ـ أولهما : الإستطراد المُخلّ . الذي أفقد البحث صلابته وتماسكه . من مثل معالجته الخلاف المعروف على إيمان أبي طالب (ص / ٦٠٢) ومسألة أن عمار بن ياسر تقتله الفئة الباغية (ص / ٢٦٢) . البحثان ممتازان ولا ريب لكنهماخارجان على عمود البحث .

ـ ثانيهما : الفقر المدقع في الإسناد . ذلك أنه دأب ، كما هو المتوقع ، على النقل من أمهات كتب التاريخ والسيرة . لكنه ، باستثناء حالات نادرة جداً ، لم يشفع نقله بالإسناد الدقيق . و هذه غائلة نجدها ، من أ سف ، لدى عامة علمائنا السابقين . مع أنهم هم الذين علّموا الدنيا أصول النقل . وذلك في القواعد الدقيقة التي وضعوها والتزموا بها لأصول تحمّل ونقل الحديث الشريف .

إن (سيرة المصطفى) كتاب رأسماله التفكير الحرّ المنتمي ، بالإضافة إلى الثقة بصاحبه . وهي ثقة في محلها ولا ريب .